القصص الديني

الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

ولادة وابن زيدون

٢٠

عبد الحميد جودة السحار

١

كانت الأندَلُسُ تموجُ بالفِتَنِ والاضطِراب ، وكان كلُّ زعيمٍ يحاوِلُ أن يستبِدَّ بإقليمِه ، والخليفةُ المُستكفِي فى قَصرِ قُرطبة ، لا هَمَّ له إلاَّ الأكلُ والشرابُ ومجالَسةُ الحِسان ؛ فقد كان نَهِمًا ، ساقِطَ الهِمَّة ، أسيرَ الشَّهوَة ، عاهِرَ الخَلوة .

وتدَلَّه حبًّا بجارِيَتِه « سَكْرَى » المورورِيَّة ، فاستبدَّتْ به ، وأغرَقَتْهُ فى لذَّاتِه ، حتَّى لاحَ أنَّ أيَّامَ الأَموِيِّينَ فى الأندَلُسِ أوشَكت أن تُصبحَ ذِكرَى .

كانت قُرطُبة مَقْصِدَ طُلاَّبِ العِلم من مُسلمينَ ومسيحيِّين ، وكانت جامعتُها مَنارةً للغرب ، ينبعِثُ منها نورُ العِرفان ، بينما كان قصرُ المُستكفِى مَقصِدَ طُلاَّبِ اللَّهو ، والرؤساءِ المَجبولينَ على الجَهالَة ،

العاكِفِينَ على الشَّراب ، الهائِمينَ فى بحورِ المُتعة .

وأنجبَتْ « سَكرَى » ولاَّدَة ، فأحضرَ لها المُستكفِى المُعلِّمين . وشبَّتْ ولاَّدَةُ فى قصر تجرى فيه الخمرُ أنهارا ، ويرنُّ فى أرجائِه أصواتُ المُطربينَ والجوارِى المُغَنِّيات ، وتطوفُ بجوانِبه أبياتُ الشِّعرِ الماجنِ الرَّقيق ، فتفتَّحتْ مواهِبُها ، وراحت تترَنَّمُ بالشِّعرِ فى طَلاقَةٍ وتحرُّر .

وفى سنة ١٠٢٥م مات المُستكفِى ، فازدادت ولاَّدَةُ تحرُّرا ، وأصبَحَ مجلِسُها بقُرطُبَةَ مُتندَى لأحرارِ المِصر ، وفِناؤها مَلعبًا لجيادِ النَّظمِ والنَّثر ، يعشُو أهلُ الأدبِ إلى ضوءِ غُرَّتِها ، ويتهالَكُ أفرادُ الشُّعراءِ والكُتّابِ على حَلاوَةِ عِشرَتِها ، إلى سهولةِ حجابِها .

صارتْ وَلاَّدةُ مَقصِدَ شعراءِ الأندَلس ، ومَبعَثَ السِّحرِ فى مجلِسِها ؛ فقد كانت بَيضاءَ البَشرَة ، شقراءَ الشَّعر ، إذا لَعِبَت على الآلاتِ الموسيقيَّة ، لعِبَت بعقولِ فُحولِ الشُّعراء ، الذين كانوا يتقاطَرُونَ

على مُنتداها طامِعين . فقد كانت تُجاهِرُ بلذّاتِها ، حتى إنَّها كَتبت على أحد عاتِقَى ثوبِها :

أنا واللّه أصْلُحُ للمَعالِى
وأمشِى مِشْيَتِى وأتِيهُ تِيها

وكتبتْ على الآخر :

وأمكنُ عاشِقِى من صَحنِ خَدِّى
وأُعطِى قُبلَتِى من يشتَهِيها

٢

كان ابنُ زَيدونَ فتًى مُرهَفَ الحِسِّ ، شبَّ فى بيئةٍ غنيَّة ، أتاحتْ له منذُ طُفُولَتِه الاتِّصالَ بالشُّعراءِ والأُدباء ، وغِشيانَ مجالِسِ الأدبِ والفُنون . وقد هَفَتْ نفسُه ليلةً إلى مُنتَدى وَلاّدة ، الذى ذاعَ صِيتُه فى قُرطُبة ، فانطَلَقَ إلى هُناك ، ليُشارِكَ شُعراءَ قُرطُبة

سهرَتهم ، ويُشنّفَ أذنيـهِ بموسِيقى ولاّدَةَ الأخّاذَة ، التى ذاعَ أمرُهـا بـين عُشّـاق الطّـرب والشـبابِ الأرستُقْراطِيِّ الـذى كـان يعيشُ فى بَذَخٍ ما بعـدَه بذَخ .

دخـلَ ابنُ زَيــدُونَ قصْـرَ ولاّدَة ، فـإذا بـولاّدة تستقبلُ ضيُوفَهـا ؛ سـافِرة الوَجـه ، مُتطلّقَـةَ المُحَيّـا ، باسِمةَ الثّغـرِ . وتَقَـدَّمَ ابـنُ زَيـدُونَ يُصافِحُهـا ، فإذا بقلْبه يخفُقُ فى شِدّةٍ بين جنبَيْه ، وإذا ببصَرِه يتتبَّعُها ، وإذا بفِكْرِه يشرُد ، وإذا به يهيـمُ فى عوالِـمَ رحيبـةٍ من الخيال .

وجلسـتْ ولاّدةُ بـين أدبـاءِ الأندَلُسِ وشـعرائِها ، ودارتِ الكئوس ، ولعِبَتِ الخمرُ بـالعُقول ، وحَنَـتْ ولاّدَةُ على آلتِها الموسِيقِيّة ، فإذا بها تعبَثُ بالأفئِدة ، وتَسبِى العُقول . وظلَّ ابنُ زَيدونَ فى تطلُّعِه الوَلهان ، والتقتْ عَيناهُ بعينَيهـا أكـثرَ من مـرَّة ، فرفَّـتْ علـى

شفَتَيها بَسمة ، كان لها فى قلبِه وقْعُ السِّهام .

وظلّ ابنُ زَيدونَ يتردَّدُ على مجلِسِ وَلاّدة ، والعُيونُ تتكلّم ، والقلبُ يخفِق ؛ وفكّرَ ابنُ زَيدونَ فى أن يكشِفَ لها عن حُبّه ، وإذا برُقعَةٍ تندَسُّ فى يدِه ، فيَفُضُّها ويقرأ :

ترقَبْ إذا جَنَّ الظّلامُ زيارَتى
فإنّى رأيْتُ اللّيلَ أكْتَمُ للسِرّ

وبى منكَ ما لو كان بالبَدرِ ما بدا
وباللّيل ما أدْجَى ، وبالنّجمِ لم يَسْرِ

واضطربَ نَفَسُ ابنِ زَيدون ، ورفَعَ عينيه إلى ولاّدة ، فإذا بوجْهِها يُشرِقُ بابتسامةٍ رقيقة ، أنزلَت على قلبِ ابن زيدنَ بردًا وسلاما .

فلمّا طوَى النّهارُ كافورَه[1] ، ونشرَ اللّيلُ عنبرَه ، أقْبلَتْ بِقَدِّ القَضِيب ، وردْفٍ كالكثِيب ، وقد

(١) هذا وصف ابن زيدون لأول لقاء .

أطبَقَتْ نرجِسَ المُقَل ، على وَرْدٍ كالخَجل ، فمالا إلى رَوض مُدَبَّج ، وظِلٍّ سَجْسَج ، قد قامَتْ رايـاتُ أشجارِه ، وفاضَتْ سَلاسِل أنهاره ، ودُرٌّ كالطلِّ منثور ، وجَيبُ الرّاحِ مَزرُور ؛ فلمَّا شبّبا نارَها ، وأدركَتْ فيهما ثارَها ، باحَ كلٌّ منهُما بحبِّه ، وشكا أليمَ ما بقَلْبِه ، وباتا بليلةٍ يجنِيانِ أقحُوانَ الثُّغور ، فلمَّا انفصَلَ عنها صباحا ، أنشد :

وَدَّعَ الصَّبرَ محبٌّ وَدَّعَكْ
ذائعٌ من سِرِّهِ ما استَودَعَكْ
يقرعِ السِّنَّ على أن لم يَكُنْ
زادَ في تِلكَ الخطَى إذ شَيَّعكْ
يا أخا البَدْرِ سَناءً وسَنى
حفِظَ اللَّهُ زَمانًا أطلَعَكْ
إن يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلي فَلَكَمْ
بِتُّ أشْكُو قِصرَ اللَّيلِ مَعَكْ

٣

ومرَّتِ الأيـَّامُ ، وابـنُ زَيـدونَ وولاَّدةُ يَعُبَّـان مـن كأسِ الغرام ، ويتنقّلان فى رِياضِ قرطبـةَ كفراشَتَيـنِ طَلِيقَتَين ، يُرَدِّدانَ فى جَنباتِ الطَّبيعةِ الشَّابَّةِ الحالِمةِ ترانِيمَ الشِّعر . وفى ذات ليلـة ــ جلسـا فـى مجلـس ولاَّدة ــ وقد اجتمعَ إليها الشُّعراء ــ فأنشَدَتْ ولاَّدةُ فى ابنِ زَيدون :

سقَى اللّه أرضًا قدْ غَدَتْ لك مَنزِلا
بكلِّ سَكُوبٍ هاطِلِ الوَبْلِ مُغْـدِق

لم يُظهِرِ ابـنُ زيـدونَ إعجابَـه بـالبَيت ، ولم يكتَـفِ بالسُّكوت ، بل راحَ ينقُـده ، مُدَّعِيًـا بـأنَّ فيـه دعـاءً على المحبوبِ لا دُعـاءً لـه . وأحسَّـتْ ولاَّدةُ إهانَـة ، وجُرِحتْ كَرامتُهـا ، فسـكتتْ على مَضَـض ، لعلَّ

ابنَ زَيدونَ يفطُنُ إلى إساءَتِه ، ويعملُ على أن يترضَّاها .

وجلسَتْ عُتبة ؛ مغَنِّيةُ ولاَّدةَ ترسِلُ النَّغم ، فأظهَرَ ابنُ زيدونَ إعجابَه ، وطلب منها أن تُعيدَ صَوتًا غنّتْه ، وراحتْ عُتبَةُ تُلَبِّى رَغبَة ابن زيدون ، وفى عَينَيها لَمعة ، وفى وجهِها فَرحة ، وعلى شَفَتَيها بَسمة .

رأتْ ولاَّدَة ذلك ، فاستشعَرَتْ مَهانة ، وضايَقَها ما يفعلُه حبيبُها ، فما كانت تظنُّ أن يوجِّهَ إطراءً إلى غيرِها فى حَضْرَتِها ، فعَزَمتْ على أن تُلَقِّنَ ابنَ زيدونَ درسًا قاسيا . فما إن انفَضَّ عِقدُ المجلِس ، حتّى أرسَلتْ إليه :

لو كنتَ تُنصِفُ فى الهَوَى ما بيننَا
لم تهوَ جَارِيَتى ولَمْ تتخَيَّر

وتركْتَ غُصْنًا مثمِرًا بجمالِه
وجَنَحْتَ للغُصْنِ الذى لمْ يُثْمِرِ
ولقدْ عَلِمْتُ بأنّنِى بدْرُ السَّما
لكنْ دُهِيتُ لِشِقْوتِى بالمُشْتَرى

٤

صَدَّتْ ولاّدةُ عن ابنِ زيدون ، فراحَ يستحلِفُها ويبعثُ إليها أنينَه ونجواه ؛ ولكنّها أغلَقَت قلبها دُونَه ، وسَرعانَ ما وجدَتْ عاشِقًا جديدا ، لا يَنقُدُ أشعارَها ولا يتودَّدُ إلى جاريَتِها ؛ عاشِقًا مشغُولاً عن الشّعر ، بتدبيرِ شئونِ الوزارة . فقد مرَّتْ بأبى عامرِ ابن عَبدُوسَ وزيرِ الدَّولة ، وأمامَ دارِه بركةٌ دائِمة ، تتولَّدُ عن كَثرةِ الأمطار ، فنظَرَتْ إليه وهَتَفتْ :

ـ أبا عامرٍ .

أنتَ الخَصِيبُ وهذه مصرُ ... فتدفَّقا فكِلاكُما بَحْرُ

وانسلَّتْ فى دلال ، وأبو عامرٍ ينظُرُ إليها فى دَهَشٍ وإعجاب ، لا ينبسُ بكلمة ، وإن كان قلبُه أخذَ يخفِقُ فى حنان . وما لبِثَ أن تبعها كالمأخوذ ، حتى غابت فى قصرِها ، وهو شاردُ اللُّبِّ ، يستشعِرُ نَشوَةً تنبَثِقُ فى أعماقِه ، وخَدَرًا لذيذًا يسرى فى رُوحِه .

وتوطَّدَت بينَهما الأسباب ، فراحا يشرَبان كُئُوسَ الصَّبابَة والغرام ، وبلغَ ابنَ زَيدونَ نبأُ حُبٍّ ولاّدةَ الجديد ، فرعتْ نارُ الغَيرةِ فى صَدرِه ، وأخذَتْ تنهَش قلبه ، فكتبَ إلى ولاّدةَ يبُثُّها لواعِجَ نفسِه ، ويلتَمِسُ منها أن تَصفَح ، وأن تنسى ما كان ، وأن تعودَ إلى الوِصال ، ولكنَّ ولاّدة التى نشأتْ مُدَلَّلة ، لا تعرِفُ إلا إجابةَ رغباتِها ، رأت فى إذلالِ ابنِ زيدونَ انتقامًا لكبريائِها ، فلجَّت فى الخِصام . فلم يجِدْ ابنُ زيدونَ أمامَه إلا أن يلجأ إلى غريمِه ،

يستعطِفُه تارةً ، ويُنذِرُه تارةً أخرى ، ولكنَّ ابنَ عَبدوسَ لم يأبَه بوعِيدِه ، ولم يستمِعْ إلى توسُّلاتِه .

وكتبَ ابنُ زَيدونَ إلى ابنِ عَبدوس ، رسالةً على لسانِ ولاّدة ، كلُّها سُخريةٌ وزِرايةٌ بابنِ عَبدوس ، وقرأت ولاّدَة الرسالة ، فازدادَ غضبُها على ابن زيدون ، وهجتْه هِجاءً مُرًّا ، فلم يطْوِ حُبَّه ، بل استمرَّ في هجومه على غريمِه الوزير الخطير .

٥

ضاقَ ابنُ عَبدُوسَ ذَرعًا برسائِلِ ابنِ زيدون ، وبتعريضهِ به ، والسُّخريةِ منه ، وفكَّرَ في أن يتخلَّصَ منه ، فاتَّهمَه بأنَّه يُحاوِلُ القِيامَ بثورةٍ على السُّلطان ، فقُبِضَ عليه واقتِيدَ إلى قاضِي قُرطُبة .

كان ابنُ زيدونَ قد استخفَّ بزعماءِ عَصرِه ، وكان كثيرَ النَّقْدِ لهم ، حتى باتَ مُبغَضًا منهم .

وكان قاضي قُرطُبَةَ « أبو محمدٍ عبدُ اللّه بنُ أحمدَ » مِمَّن أغضبَهم ، فما إن وقفَ بينَ يديه ، حتّى أمرَ بسجنِه .

أحسَّ ابن زيدونَ بتَعْسٍ في سِجنِه ، فراحَ يستعطِفُ الوَزيرَ أبا الحزمِ بنَ جَهْور ، ويلتمسُ منه العَفو . ولكنَّ أبا الحَزمِ لم يُعِرْهُ أذُنًا مُصغِيَة ، فيظَلَّ يبعَثُ إليه بقصائِدِه ورسائِلِه ، ويُرسِلُ إلى أصدِقائِه ، ليُكلِّمُوا أبا الحَزْمِ لإطلاقِ سَراحِه . وأخيرًا يئسَ من التَوسلِّ والرَّجاء ، فعزَمَ على الفِرار .

وفي ليلة عِيدِ الأضحَى ، فرَّ من سِجْنِه ، وانطَلَقَ إلى إشبيلِيَّة . وكانَ أوَّلَ ما فَعلَه أن بعثَ إلى ولاَّدةَ قصيدةً يصِفُ فيها حالَه ، لأنَّ أوارَ حُبِّه لها لم يَخْبُ :

أضحَى التَّنائِي بديلا من تدانِينا
وناب عن طيبِ لُقيانا تجافِينا
هلاَّ وقد حانَ صبحُ البَين صَبَّحَنا
حَينٌ ، فقامَ بنا للحَينِ ناعينا

إنَّ الزمانَ الذى ما زالَ يُضحِكنـا
أُنسًا بِقُربِهِـمُ ، قـد عادَ يُبكينا

٦

ونَجَحَ أبو الوَليدِ بنُ جهور فى أن يُرقّقَ قلبَ أبيه على ابنِ زيدون ، فصَدَرَ العَفو عنه ، وأصبحَ الأمرُ فى يدِ أبى الوَليدِ بعدَ موتِ أبيه ، فقَلَّدَ ابنَ زَيدونَ الوَزارة ، ولكنَّ ذلكَ كلَّه لم يُنسِه حُبَّه لولاّدة ، فراحَ يجوبُ الأندلُس كالغريب ، يبكى حبَّه الضَّائع ، ويئِن من جوى قلبِه .

نزَلَ قُرطُبة ، وذهبَ إلى إشبيلِيَّة ، واتَّجهَ إلى قصرِ المُعتَضِدِ بنِ عَبَّاد . ولمّا بلغَ المُعتَضِدَ نبأُ قُدومِ ابنِ زَيدونَ عليه ، خرجَ فى وزرائِه لاستقبالِه ، وخلعَ عليهِ الخِلع ، وجعلَه وزيرَه ، ولكنَّ ذلكَ

المَجدَ كلّه لم يُنْسِه حبّه ، ولم يُذهِبْ المَرارةَ التى كـان يُحسُّها كلما فكّرَ فى ولاّدة .

وماتَ المُعتَضِد ، وخَلَفَه المُعتَمِدُ بنُ عَبّاد ، فـازدادَ ابنُ زَيدونَ فى بِلاطِه رِفعَة ، وراحَ يقضِى اللّيالىَ فـى شُـربٍ وسَـمَر ، يُصغـى إلى القِيتـان ، ويُطلِـقُ الضَّحكات ، ولكنَّ قلبَه كان يَدمـى ، فقـد صـارتْ ضَحكاتُه أنينا ، وبَسماتُه ألَما .

وطَفِقَ ابنُ زَيدونَ يشربُ الخمر ، لعلّه ينسَى آلامَ رُوحِه ، وتقدَّمَتْ به السّن ؛ وبينما كان المُعتمِـد فـى قُرطبة ، ثارَ اليَهودُ فى إشبيلِيَّة ، فبعثَه المُعتَمِدُ لِيُخمِدَ تلكَ الثورة ، فانطَلقَ واهِنَ الجسـم ، شـارِدَ اللُّـبِّ ، تتخايَلُ له ولاّدةُ أينما يصرِفُ البَصر .

وبلَغَ إشبيلِيَّة ، وقدْ ثَقُلَ عليه المرض ، فراحَ يذكُـر أيـّامَ الوِصـال ، فتبسـطُ أساريرُه ، ثـم لا يلبَـثُ أن يتذَكّرَ الهِجران ، فيَئِنُّ ويتوجَّع ، ويُنشِد :

هل تذكــرونَ غريبًا عادَه شَجَنُ
من ذِكرِكُم وجفا أجفانَه الوَسَنُ
يُخفِي لواعِجَه والشَّوقُ يفضَحُه
فقد تســاوَى لديْهِ السِّرُّ والعَلَنُ
يا وَيْلَتنــاهُ أيَبْقَى فى جَــوانِحِــهِ
فُــؤادُه وهوَ بالأطلالِ مُرْتَهــنُ

وراحَ يلفـظُ أنفاسَــه ، فكــان اسْــمُ ولاَّدةَ بنــتَ المُستَكفِي ، التى لوَّعَتْه بهجْرِها ، آخِرَ ما نَطَقَ به .